Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (14): 30 Nov 2021
P: 54 - 71
ISSN: 2522-3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (14): 30 نوفمبر 2021م
ص: 54 - 71

Conversational Implicature in the Qur'anic text
– A deliberative study of the verses of family discourse –

Zein Baker Zataar

Abstract: This research aims to examine the verses of family discourse in the Qur'anic text in a deliberative manner in accordance with the conversational implicature theory, which considers that any dialogue between two parties includes an explicit meaning, and an implicit meaning that is understood from the context. The concept of conversational implicature was explained in this study. In addition, the study investigated the conversational implicature included in the verses of family discourse among family members and among the spouses themselves. The research concluded that the rhetorical methods contained in the family discourse verses in the Qur'anic text carry implicit meanings that are understood within the context in which they are mentioned.

Keywords: conversational implicature, deliberation, family discourse, the Qur'anic text.

الاستلزام الحواريّ في النَّصّ القرآنيّ
– دراسة تداوليَّة في آيات الخطاب الأُسريّ –

زين بكر زعتر

المستخلص: يهدف هذا البحث إلى دراسة آيات الخطاب الأسريّ في النَّصّ القرآنيّ دراسة تداوليَّة وفق نظرية الاستلزام الحواريّ التي ترى أنّ العمليّة الحواريّة بين طرفي الحوار تتضمّن معنى صريحاً، وآخر ضمنياً يُفهم من السّياق الذي يرد فيه، وقد جاء في تمهيدٍ تناول مفهوم الاستلزام الحواريّ، ومبحثين وخلص البحثُ إلى أنَّ الأساليب البلاغيّة الواردة في الخطاب الأسري في النَّصِّ القرآنيّ تحمل معانٍ ضمنيَّة تُفهم في إطار السّياق الذي وردت فيه.

الكلمات المفتاحيَّة: الاستلزام الحواريّ، التداولية، الخطاب الأسريّ، النّصّ القرآني.

المُقدِّمة.

تعدّ نظريةُ الاستلزام الحواريّ من أبرز نظريات الدّراسات التّداوليَّة التي حظيت باهتمام الدارسين والباحثين في البلاغة العربيَّة في العصر الحديث، حيث كان لبول غرايس الدور الأكبر في توجيه الاهتمام اليها بعد أنْ ألقى محاضرات في جامعة هارفارد، والتي أفرزت مبدأ عام للحوار سمي (مبدأ التعاون) الذي يترتّب عليه أن يتعاون المتحاورون في حواراتهم لتحقيق الهدف من الحوار. وعليه فإنَّ عدم الالتزام بهذه المبادئ يعدُّ خروجاً وخرقاً لهذه الأحكام واستلزاماً لسياق الحواريَّة التي يجري فيها الحوار، وقد تناول البحث الاستلزام الحواري في النص القرآن الكريم الخطاب الاسري من خلال محورين: المحور الأول الاستلزام الحواري في الخطاب الأسري من خلال المعاني المستلزمة في الأساليب الانشائية الطلبية. والمحور الآخر الاستلزام الحواري في الخطاب الاسري بين قطبي الاسرة (الذكر والأنثى) من خلال المستلزمة الكنائية والاستعارية. ولم يكن اهتمام هذه البحث مُنصبّاً على دراسة الأساليب الانشائية الطلبية، وأسلوبي الكناية والاستعارة، إنما انصب الاهتمام على الجانب التطبيقي. وقد تناول البحث النص

القرآني في الجانب التطبيقي. وقد استدعت طبيعة البحث تقسيمه إلى مبحثين: مبحث نظري يسلط الضوء على النظرية التداولية التي انبثقت عنها نظرية الاستلزام الحواري، كما تناول مبدأ التعاون عند غرايس وما أفرزته من أحكام. والمبحث التطبيقي الذي اقتضت طبيعة البحث إلى تقسيمه إلى محورين: المحور الأول الاستلزام الحواري في الخطاب الأسري بين أفراد الأسرة، وقد تناول الخطابات النبوية لما تمثله من نماذج مثالية على الصعيد التربوي والدعوي وبالأثر البلاغي. وذلك من خلال رصد مستلزمة الأساليب الانشائية الطلبية في هذه الحواريات، والمحور الآخر الاستلزام الحواري في الخطاب الأسري بين الرجل والمرأة، من خلال رصد المستلزمة الكنائية والاستعارية في هذه الحوارات.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في محاولة إظهار التداولية في الخطاب الأسري، وقد اعتمدت الباحثة لبيان هذه الأهمية المنهج التحليلي، معتمدا على بعض الأمثلة في الحوارات النبوية دون غيرها منعا للتكرار وتجنب الإطالة.

التّمهيد: الاستلزام الحواريّ

تُعدُّ النَّظريّة التّداوليَّة من أبرز القضايا التي حظيت باهتمام الدّارسين في العصر الحديث، وقد اكتسبت أهميتها من الدور الذي تلعبه في لفت الانتباه إلى الاهتمام بالاستعمال اللغويّ، فهي "مذهبٌ لسانيٌّ يدرس علاقة النّشاط اللغويّ بمستعمليه، وطُرق وكيفيات استخدام العلامات اللغويّة بنجاح، والسّياقات والطّبقات المقاميّة المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالةً تواصليةً واضحةً وناجحةً، والبحث في أسباب الفشل في التّواصل باللغات الطّبيعية "[1]، ويتضح لنا من خلال هذا التعريف أنَّ التّداولية تدرس اللغة عند استعمالها، وتبين كيفية استخدامها، وتركز على عوامل نجاح العملية التواصلية وفشلها بين طرفي العمليّة الحواريّة، ومن هنا يظهر اختلاف التّداوليّة عن المناهج النّقديّة الأخرى، ففي الوقت الذي تهتم فيه المناهج الأخرى بالخطاب بوجهٍ عام، تهتمُّ التّداوليّة بالفعل الكلاميّ من حيث القصد والمضمون؛ لهذا جاءت التّداوليّة ردّاً طبيعيّاً على المناهج الشّكليّة التي جعلت البنية اللغويّة محطَّ اهتمامها متجاهلةً العوامل الأخرى التي تحيط بعمليّة التواصل.

وتُعدُّ نظرية الاستلزام الحواريّ من أبرز مباحث التّداوليَّة فهي " ألصقها بطبيعة البحث، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدَّرس الدّلاليّ"[2] التي يمكن اختصارها بأنَّها "حلٌّ لإشكال مفاده أنَّ المتكلِّم يقول شيئاً، ويقصد شيئاً آخر، وأنَّ المخاطَب يسمع شيئاً، ويفهم شيئاً آخر"[3].

وتمثّل نظرية الاستلزام الحواريّ - عند مُؤسِّسها بول غرايس – الرّكن الرّئيس في العمليّة الحواريّة بين طرفي الخطاب (المُخاطِب والمُخاطَب)؛ إذ إنَّ نجاح هذه العمليّة يعتمد على إخضاعها لقواعد تعمل على ضبط العملية الحواريَّة للوصول إلى الهدف من الحوار، فالعملية التّواصليّة عند غرايس يجب أن تبتعد عن الاضطراب أو العشوائية؛ لأنَّ الأصل فيها أن تكون عمليةً مُنضبطةً بقواعد مُحدَّدة تضمن نجاحها وتحقّق الغاية منها. فالاستلزام الحواري يتولّد من انتهاك بعض مبادئ الحوار التي وضعها غرايس فهو ينشأ "عندما لا يُرضي الجواب بصفة مقبولة ما جاء في السؤال من طلب ثم التعبير عنه"[4]، بمعنى يكون هناك في الحوار خرقٌ لمبدأ أو أكثر من مبادئ غرايس التي عمل على ترسيخها في العملية الحوارية، وفي الوقت ذاته عمل على ربطها بـ "مبدأ التعاون" الذي وضعه.

---

(1) صحراوي، مسعود، (2005): **التداولية عند العلماء العرب**، ط1، دار الطليعة، بيروت، ص5.

(2) نحلة، محمد أحمد، (2002): **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، (د. ط)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ص32.

(3) المرجع السابق، ص 33-34.

(4) إيكو، أمبرتو، (2005): **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة: أحمد الصمعي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص 375.

"مبدأ التعاون" عند غرايس

إنَّ قضية المعنى من القضايا التي شغلت النّقاد قديماً وحديثاً، واحتلّت حيّزاً كبيراً من اهتمامهم، وقد تمثّل هذا الاهتمام في حرصهم على تحديد مفهوم المعنى وأنواعه؛ إذ تبيّن لهم أنَّ المعنى ينقسم إلى قسمين: معنى حقيقي، ومعنى مجازي، وأطلق عليه آخرون: المعنى الطّبيعي، والمعنى غير الطّبيعي، وقديماً أطلق عليه عبد القاهر الجرجانيّ (471هـ) المعنى ومعنى المعنى، وحديثاً كان للمحاضرة التي ألقاها بول غرايس في جامعة هارفارد (1976م) بعنوان "المنطق والحوار" دورٌ بارزٌ في هذه القضية، وقد كانت نقطة البدء عند غرايس "أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فكان جلُّ اهتمامه إيضاح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد"[(5)].

يتضح من ذلك أنَّ محور الاهتمام عند غرايس هو المُخاطِب والمُخاطَب، ودلالات الخطاب والتفاعل بينهما، وعليه فإنَّ على طرفي الحوار أن يحتكما إلى مبادئ وقوانين مُحدَّدة، وضعها غرايس تحت مبدأ يُسمّى "مبدأ التعاون" يتفرع إلى أربع قواعد، هي:

أ- **قاعدة الكم:** تركّز هذه القاعدة على كمية المعلومات؛ إذ يجب أن يكون الكلام على قدر المعلومات المطلوبة؛ لتفي بحاجة المخاطَب، وأي زيادة أو نقصان تُعدُّ خرقاً لهذه القاعدة، وهي تتفرّع إلى قاعدتين رئيستين، هما:" لتكن إفادتك المخاطَب على قدر حاجته، ولا تجعل إفادتك تتعدّى القدر المطلوب"[(6)].

ب- **قاعدة الكيف:** تركّز هذه القاعدة على فكرة الصّدق في الكلام، وهذا يرتّب على المخاطِب ألّا يقول ما يعتقد أنّه كذب، أو ما لا يمكن إثبات صدقه، وهذه القاعدة تتفرّع – أيضاً - إلى قاعدتين رئيستين، هما: "لا تقل ما تعلم كذبه، ولا تقل ما ليست لك عليه بيّنة"[(7)].

ج- **قاعدة الملائمة:** تركّز هذه القاعدة على فكرة ملائمة الكلام لمقتضى الحال، بحيث يكون الكلام مناسباً للموضوع، بمعنى آخر أن يلتزم المُخاطِب بقاعدة " لكلِّ مقامٍ مقال"، أو كما قيل: "ليناسب مقالُكَ مقامَكَ" [(8)].

د- **قاعدة الطريقة:** تركّز هذه القاعدة على فكرة وضوح الكلام وبعده عن الغموض والتّعقيد، والحرص على أن يكون مُوجزاً ودالًّا، يحترز فيه قائله من الخفاء في التّعبير، والاشتباه في اللفظ[(9)].

يتبيّن من خلال هذه القواعد عند غرايس أنَّ الهدف منها هو ضبط الحوار بين طرفيه، فقد وجّه غرايس اهتمامه نحو أصول الحوار؛ لذلك وضع مبدأ التعاون ليتسعَ إلى مجموعةٍ من الضّوابط الحواريَّة، إذ إنَّ العملية التواصليَّة الحواريَّة بين طرفيها تحمل المخاطِب على قول ما يقصد، وفي بعض الأحيان لا يقول ما يقصد بل يُضمر في نفسه معنى آخر، وهذا يؤكّد وجود معنيين الأوّل معنى طبيعيّ يوافق القول فيه حرفيّاً المعنى المقصود، والآخر مجازيّ يُفهم من خلال السّياق الذي ورد فيه، ومن هنا جاءت نظرية الاستلزام الحواريّ.

يتسم الحوار الأسريّ في النَّصِّ القرآنيّ بأنَّه حوارٌ تنظيميٌّ جاء ليحقّقَ هدفاً، وينظّم علاقةً؛ ولهذا اختلفت أساليبه، فهناك الحوار الصّريح المباشر، يقابله الحوار التّلميحيّ أو الإشاري، وقد ورد في القرآن الكريم نماذجُ مختلفة للحوارات الأُسريّة؛ لذلك استدعت طبيعة العلاقات بين أفراد الأسرة أن تأتي دراسة الاستلزام الحواري فيه وفق محورين:

---

(5) نحلة، محمد أحمد: **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، ص32-33.

(6) عبد الرحمن، طه، (2000): **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط2، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، ص 103-104.

(7) المرجع السابق، ص104.

(8) المرجع السابق، ص104.

(9) انظر، المرجع السابق، ص104.

المحور الأوّل: الاستلزام الحواريّ في الخطاب الأُسريّ بين أفراد الأُسرة.

إنَّ المُتتبّع للخطاب الأُسريَّ في النَّصِّ القرآنيّ يجد أنَّ خطاب الأنبياء حفل بكثيرٍ من الأساليب البلاغيَّة التي ظهر فيها الاستلزام الحواريّ، وسنعرض لهذا الاسلوب من خلال الحوار الذي يمثل المحور الرئيس لهذا الخطاب، وعلى النّحو الآتي:

أولاً: حوار سيدنا إبراهيم عليه السَّلام

جاء الخطاب الأُسريَّ في النَّصَّ القرآنيّ بصورٍ مُتعدِّدة، وسلك طرقاً مختلفة اقتضاها السّياق؛ ولأنَّ البحث لا يهدف إلى استقصاء الحوار النبوي في النَّصَّ القرآنيّ، ارتأينا أن نعرض نماذج من هذه الحوار دون غيرها، فقد ورد في أكثر من موضع حوار إبراهيم - عليه السَّلام - مع أبيه، وقد اخترنا الآيات الواردة في سورة مريم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)﴾[10]، فقد وظِّفت في هذه الآيات الكريمة الأساليب الانشائيّة الطّلبيّة جميعها، وهي تمثّل نوعاً من أنواع الاستلزام الحواري، ففي قول إبراهيم – عليه السّلام – (يَا أَبَتِ): خرجت أداة النّداء (يا) عن معناها الحقيقيّ الاستدعائي ولفت الانتباه مع التّكرار إلى معنى آخر يفيد اللطف في الخطاب والرّقة واللين[11]، فقد تكرّر نداء إبراهيم - عليه السّلام - لأبيه أربع مرات، كما أنَّ أداة النِّداء (يا) هي في أصلها تُستخدم للمنادى البعيد، إلا أنَّها خرجت عن معناها الظَّاهر إلى مقتضى الحال، فالمستلزمة الحواريّة ومقتضى الحال يستدعيان من إبراهيم - عليه السلام - إظهار اللطف والرّقة واللين، تحبّباً من الابن إلى الأب، وفي هذا يقول ابن عاشور: " إن النداء بقوله (يا أبتِ) أربع مرات تكريرٌ اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب"[12]، لذلك لم يخاطبه بلفظ (يا أبي) التي تُستخدم في النّداء العادي العام، واستبدل بها لفظاً يُظهر التّقرّب لتحقيق هدف إبراهيم - عليه السّلام- بأن يترك أبوه عبادة ما دون الله.

أمَّا الاستفهام الإنكاريّ في قوله: (لِمَ تَعْبُدُ) فقد خرج عن معناه الحقيقي إلى مقتضى الحال وتضمّن معنى التوبيخ، ويذهب ابن عاشور إلى أنَّ "الاستفهام مُستعمل في حقيقته ومكنى به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله (لِمَ تعبد) فهو كناية عن التّعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو في التّورية في معنيين يحتملهما الاستفهام"[13]، ويظهر الاستلزام الحواريّ في أسلوب الأمر (اتَّبِعْنِي) الذي خرج عن المعنى الحقيقي للأمر من رغبة الانصياع إلى رغبة الإصرار على نصيحة الأب لتحقيق الغاية التي من أجلها أُنشئ الحوار بين إبراهيم - عليه السّلام - وأبيه.

وتضمّن أسلوب النّهي (لَا تَعْبُدِ) المعنى الاستلزاميّ المتمثّل في "تبغيض عبادة الأصنام؛ لأنَّ في قرارة نفوس النّاس بغض الشّيطان والحذر من كيده"[14]، لذلك خرج النّهي عن معناه الحقيقيّ إلى مقتضى الحال وقد أفاد معنى الإرشاد والنصح، وبعد هذه السّلسلة من الأساليب الإنشائيَّة التي وردت في حوار إبراهيم – عليه السّلام – مع أبيه

(10) سورة مريم، الآية 41-48.

(11) زكريا، عبد المرضى، (1997): **الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني**، (د. ط)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص176.

(12) ابن عاشور، محمد الطاهر، (1984): **تفسير التحرير والتنوير**، (د. ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 114/16.

(13)ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**،، 114/16.

(14) المصدر السابق، 116/16.

يتوقّع مُتتبّع الحوار أن يكون هناك أجوبة، ولكن مقتضى الحال يحمل في طياته المفاجئة؛ وذلك بأن يردَّ على الاستفهام باستفهام بقوله: (أراغب) والاستفهام هنا – أيضاً - يخرج عن مقتضى الظاهر إلى مقتضى الحال ويفيد معنىً جديداً مستلزماً من الحوار يتمثّل في التعجب والاستنكار والتقريع، وهو عند الزّمخشري "ضربٌ من التّعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأنَّ آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحدٌ"[15]، وقد جاء استفهام أبيه له فيه من الغلظة والإنكار بأن أردف الاستفهام بخطابه بـ (أنت) التي تؤكّد الحضور، ولكنَّه توغَّل في الإنكار بأن قابل نداء إبراهيم (يا أبتِ) فناداه باسمه (يا إبراهيم) وفيه تأكيدٌ على الإنكار "وهي تكملة لجملة الإنكار والتّعجب؛ لأنَّ المتعجّب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله كأنَّه في غيبة عن إدراك فعله، فالمتكلِّم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه"[16].

يتضح لنا من خلال حوار إبراهيم - عليه السّلام - مع أبيه في الآيات الكريمة السابقة، أنَّ توظيف الأساليب الإنشائيَّة المتتاليّة جاء "من الأدنى إلى الأعلى، وذلك واضحٌ في نداءات إبراهيم الثّلاثة مع أجوبتها لنكتة محاولة هداية أبي إبراهيم لعلّه إن لم يقتنع بالأسلوب الأوّل أقنعه الذي بعده من الأساليب"[17]، وهو الذي وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[18]؛ لذلك يظهر جلياً أنَّ الحوار الأسريّ هنا هو حوارٌ مُركّبٌ يمكن أن يوصف بأنّه حوار أُسريّ دعويّ وُظِّفت لأجله الأساليب الإنشائية، و"أنَّ هذا الخطاب نموذجٌ للخطاب الدعوي بشكلٍ عامٍ والأُسري بشكلٍ خاصٍ، يعرضه علينا القرآن الكريم في صورة حوار خطابي بليغ اللغة، سامي المعاني، مُتعدِّد الدّلالات"[19].

وفي المقابل وفي علاقة أخرى بين إبراهيم - عليه السلام - وأبيه يجري حوارٌ بين الأب والابن على عكس الحوار السابق الذي جرى بين الابن والأب، حيث يكتنفه الانصياع والطاعة المُغلَّفة بالودِّ (يا أبتِ افعل ما تؤمر)، ليقع الاختيار على آياتٍ من سورة الصّافات تحكي قصة الأب الشيخ الكبير الذي رُزِقَ بولدٍ على الكبر، ليأتي أمر السماء بذبح الابن الذي وُلِدَ وأمّه عجوزٌ عقيمٌ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(105)﴾[20].

ينشأ الحوار بين الأب والابن، ودافع الحوار تلبية أمر السماء، وقد وُظِّفت عدّة أساليب إنشائية كالنداء (يا بُني، يا أبتِ، يا إبراهيم)، والأمر (انظر، افعل)، والاستفهام (ماذا)، ففي النداءين (يا بني، يا أبتِ) تناغم وانسجام ومودة دافعها الانصياع لأمر الله- تعالى-، وقد كانت هناك وقفة سابقة مع (يا أبتِ) يقابلها نداء إبراهيم (يا بُني) الذي جاء – هنا - بمعناه الحقيقي بما يحمله من عاطفة الأب اتجاه ابنه، أمّا مناداة إبراهيم المُسندة إلى الله فتعود إلى أنَّه – سبحانه وتعالى - قد أمر الوحي بالمناداة، وقد خرجت عن المعنى الحقيقي إلى معنى مستلزم من الحوار اقتضاه الحال وهو عدم تنفيذ فعل الذبح.

أمَّا في صيغتي الأمر (انظر، افعل) فإنَّ الأمر من إبراهيم - عليه السلام - خرج عن معناه الحقيقي وهو الانصياع للأمر إلى الإعلام، فهو يريد أن يُعلِمه ليكون أهون عليه، وفيه شيء من الاختبار، فهو يختبر صبر إسماعيل

---

(15) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، (1998): **الكشاف**، ط1، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، 25/4.

(16) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 119/16.

(17) الحميدي، عبده عبد الله، (2007): **الحوار في القرآن الكريم**، (د. ط)، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية، اليمن، 581/1.

(18) سورة هود، الآية 75.

(19) الخليلي، محمد غسان، (2017): **جماليات الخطاب الأسريّ في القرآن الكريم**، (د. ط)، دار الفلاح، عمان، ص38.

(20) سورة الصافات، الآية 102-104.

وعزمه على طاعة الله، وقد جاء الاستفهام بعد الأمر (انْظُرْ مَاذَا تَرَى) الذي خرج – أيضاً - عن معناه الحقيقي لتحقيق غاية لا تنفيذ تكليف وهو فعل الذبح، فلو كان الأمر بمعناه الحقيقي لمكّن الله له امتثال التنفيذ، لذلك حمل أمر التكليف نوعاً من الاختيار ليكون الامتثال والانصياع لأمر الله بمحض الإرادة لا يكون التنفيذ قصريا أو مكرها عليه، أي أنَّ الأمر خرج إلى معنى مستلزم يتمثّل بالمشورة؛ ليكشف موقف إسماعيل ومدى استعداده لأمر الله. وليس غريباً أن يكون رده (افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) وهو الذي وصفه الله - عزّ وجلّ - بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[21]، "وذلك لأن الأمر تعلّق بذات الغلام كان للغلام حظُّ الامتثال، وكان عرض إبراهيم على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته"[22]، أمّا صيغة الأمر (افعل) تستعمل في الإذن، وقد تجنب الابن الالتزام بالكم، فلم يقل اذبحني، وإنما المستلزمة الحوارية اقتضت قول (افعل ما تؤمر) وقد جمع بين الإذن وتعليله، أي أذنت لك بأن تذبحني لأنَّك أُمرت بذلك[23].

ثانياً: حوار سيدنا نوح عليه السّلام

من الحوارات الأسريَّة النبويَّة، حوار سيدنا نوح - عليه السلام - مع ابنه، وقد امتاز هذا الحوار بالإيجاز فهو حوار مُقتضب، فالسياق الذي يجري فيه لا يحتمل الإسهاب او الاستطراد، لذلك جاء قصيراً، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(43﴾[24]، وُظِّفت في هذا الحوار ثلاثة أساليب إنشائية: النّداء (يا بني)، والأمر (اركب)، والنَّهي (لا تكن). ففي النّداء استخدم نوح - عليه السَّلام - أداة النَّداء (يا) وهي للبعيد، ليدل على البُعد المعنوي وليس المكاني، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، وقد حمل تصغير المنادى (بني) دلالة الشفقة على الابن، فخرج النداء عن معناه الحقيقي إلى المعنى المستلزم من الحوار وهو الإغراء. أمَّا أسلوب الأمر (اركب) فقد خرج عن معناه الحقيقي إلى مقتضى الحال وهو الانصياع وتلبية نداء الأب " وهو كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير"[25]، وجملة (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا) بيان لجملة (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) وهي جملة" إرشاد ورفق به "[26]. أما أسلوب النهي (وَلَا تَكُنْ) فقد خرج في معناه إلى مستلزمة حوارية فجاء بمعنى النصح والإرشاد، "وقد نهى نوحٌ ابنه عن الكون مع الكافرين خارج السفينة، ويمكن أن يكون الكون معهم معناه الكون على دينهم، والنهي للنصح والارشاد"[27]، وفي الحوارين السابقين، حوار سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع ابنه، وحوار سيدنا نوح - عليه السلام - مع ابنه، يظهر جلياً دور السياق الذي تجري فيه الحوارات، فحوار إبراهيم يكتنفه التمهل والتروي، ويدلُّ على ذلك تكرار (يا بني)، في حين أنَّ السّرعة تكتنف سياق حوار نوح - عليه السَّلام- حيث إنَّ المقام لم يتح النداء إلا مرّة واحدة، ومن ثم يحيل الموج بين المتخاطبين وينتهي الحوار بالسّرعة نفسها التي بدأ بها، بقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [28].

---

(21) سورة الصافات، الآية 101.

(22) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 151/23.

(23) انظر، المصدر السابق، 151/23.

(24) سورة هود، الآية 42-43.

(25) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 76/12.

(26) المصدر السابق، 76/12.

(27) مصطفى، محمود السيد حسن، (1981): **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، (ط.1)، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، ص 288.

(28) سورة هود، الآية 43.

ثالثاً: حوار سيدنا يوسف عليه السّلام

يمتاز الحوار في سورة يوسف بأنَّه مُتعدِّد الاتجاهات، وقد امتدَّ على مدار السورة كلِّها، وتنوعت الأساليب الإنشائية التي وُظِّفت في هذا الحوار؛ وذلك لطبيعة العلاقة بين أطراف المحاورات، فهناك حوار يوسف مع يعقوب عليهما السلام (حوار الابن مع الأب)، وحوار الأب مع الأبناء (أخوة يوسف)، وحوار الأخوة (يوسف وأخوته) وحوار الأخوة مع بعضهم.

أ- حوار يوسف مع يعقوب عليهما السلام

ابتدأ الحوار في سورة يوسف بين يوسف ويعقوب - عليهما السلام - أي حوار الابن مع الأب، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾ [29]، ومن خلال الآيتين الكريمتين يتبين أنَّ هذا الحوار يجري بمعزل عن الأخوة، فهو حوار أقرب إلى الهمس يكتنفه حبٌّ وخوف، الخوف ليس من غريب إنّما من قريب يترصد به، ويستهل الحوار بالنداء (يَا أَبَتِ)، والأب يقابل النّداء بالنّداء (يَا بُنَيَّ) يعقبه نهي (لَا تَقْصُصْ)، وقد كان المتوقع من الأب المبادرة في تأويل الرؤيا، ولكن المستلزمة الحوارية خرجت عن المتوقع فكتم التأويل وأفصح بالتحذير، معللاً بالخوف من كيد الأخوة، ونلاحظ أنَّ هذا الحوار من الحوارات القصيرة، لكنه يحمل حقيقة العلاقة بين الأخوة، وقد تضمّن أسلوبين من أساليب الإنشاء، هما: النداء والنهي، وقد جاء نداء الابن تمهيدا لما سيخبر به الأب عن تلك الرؤيا " هذا النداء دلالة تتضمن التمهيد من يوسف لإخبار أبيه يعقوب بالرؤيا، إخبارا يكشف دلالة التعجب والدهشة باستخدام خطاب النداء ومناداته بالأداة (يا) التي للبعيد إشارة إلى علو منزلة يعقوب عنده"[30]، وقد جاء في تفسير روح المعاني للألوسي "زعم بعضهم أن الياء أبدلت تاء لأنّها تدلُّ على المبالغة والتعظيم"[31]، ورأي ابن عاشور ليس ببعيد عن ذلك " فالنّداء في الآية، مع كون المنادى حاضراً، مقصودٌ به الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المخَاطب، فينزل المخَاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام"[32]، وبذلك يخرج أسلوب النداء عن معناه الحقيقي إلى معنى مستلزم من الحوار ويقتضيه الحال بما يحمله من التعجب والدهشة من تلك الرؤيا التي كانت منطلق الحوار بين يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام. كذلك نداء الأب لابنه فهو – أيضاً - خرج عن معناه الحقيقي إلى مقتضى الحال وقد حمل تصغير (ابن) شيئاً من الشفقة المُغلَّفة بالمحبَّة"، وهذا التصغير كنايةٌ عن تحبيب وشفقة، نزل الكبير منزلة الصغير لأن شأن الصغير أن يحب ويشفق عليه، في ذلك كناية عن إمحاض النصح له "[33]، وقد أعقب نداء الأب نهيٌ (لَا تَقْصُصْ) وهذا النهي فيه شيء من التحذير، ومن لطائف الحوار في النّصّ القرآنيّ أنَّ الأمر والنهي يتبعهما التعليل، (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا). وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي

(29) سورة يوسف، الآية 4-5.

(30) الغرايبة، علاء الدين، (2014): **الجملة الطّلبيّة في سورة يوسف دراسة تركيبيّة دلاليّة**، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مج41، ع1، ص 404.

(31) الألوسي، شهاب الدين محمود (د.ت): **روح المعاني "في القرآن العظيم والسبع المثاني "**، (د. ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 178/12.

(32) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 207/12.

(33) المصدر نفسه، 213/12.

وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾ [34]، لقد حان وقت التكريم والتأويل بأسلوبي الأمر والنداء، أمّا الأمر (ادْخُلُوا) فهو للدعاء[35] وليس دخول إلزام وإتيان، بل دخول دعاء وتكريم لتتحقق الرؤيا ويكون السجود، سجود تكريم لا سجود عبادة، وكما بدأ الحوار بين يعقوب ويوسف - عليهما السلام - بنداء يوسف لأبيه (يَا أَبَتِ) كذلك ختم الحوار بذات النداء (يَا أَبَتِ) غير أن المستلزمة الحوارية في هذا الموضع خرجت إلى معنى آخر، يحمل في طياته تعليل السجود ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، فلم يكن هذا السجود لولا أنّه أمرُ ربّي فكان النداء المشّبع بالمحبَّة والتّقدير.

ب- حوار أخوة يوسف مع يعقوب عليه السّلام

تعدّدت حوارات أخوة يوسف مع أبيهم في سورة يوسف، وسنقتصر على الآيات التي وُظِّفت فيها الأساليب الإنشائية، فبالنظر إلى طبيعة الحوار الأسريّ الذي جرى بين الأب (النبي)، والأبناء (أخوة يوسف) نجد أنه ليس حواراً دعوياً، فقد سيطر الحسد على قلوب الأخوة اتجاه الأخ الأصغر، فهم يظهرون غير ما يخفون، لذلك نجد أنَّ هذه الأساليب خرجت عن معانيها الحقيقية إلى مقتضى الحال وما يستلزمه الحوار، ونلاحظ أنَّ الآيات الكريمة التي ورد فيها الحوار بين يعقوب - عليه السلام - وأخوة يوسف وظّفت جميع الأساليب الإنشائية باختلاف حجم التوظيف، فقد وردت في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12)﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17)﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(65)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)﴾، وقوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)﴾وقوله تعالى:(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97)﴾[36].

من خلال الحوارات السابقة نجد أنَّ نداء الأبناء بِـ (يَا أَبَانَا) قد ورد في خمسة مواضع، يقابلها نداء الأب (يَا بَنِيَّ) قد ورد في موضعين، وأداة النداء (يا) وُظِّفت بشكل واضح، ففي نداء الأبناء (يَا أَبَانَا) أُسند إلى المنادى(أب) ضمير الجمع (نا) ظنّاً منهم أن يُحمل النداء على ظاهره بأنّه صيغة تحبّب، ولكن في حقيقته خرج النداء إلى مستلزمة حوارية يكتنفها الكذب والمراوغة، فقد جاؤوا في الليل يبكون عسى الليل يستر تباكيهم، أمّا النّداء (يَا بَنِيَّ) وفي كلا الموضعين حمل في طياته العطف والحنان من الأب النبي على الأبناء، وهو المُطّلع على سريرتهم، ولكن هذا عهد الآباء بالأبناء، فكيف إذا كان الأبُ نبياً؟! وفي الوقت ذاته يُوظف النداء في الموضعين للتمهيد بما سيُكَلَّف به الأبناء

(34) سورة يوسف، الآية 99-100.

(35) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 55/13.

(36)سورة يوسف، الآيات (11،12)،(17)،(63-65)،(67)،(81-84)،(87)،(96،97).

[ستعالج التكاليف في موضعها الأمر والنهي]، و(يَا أَسَفَى) مرة واحدة، وهذه النداء في الظاهر يحمل معنى الندم والأسف، ولكن في حقيقته يعبّر عن شدة الحزن على فقد يوسف " فقد أضاف الأسف وهو شدة الحزن والحسرة إلى نفسه "[37]، فجاء التجنيس بين الأسف ويوسف تجنيساً عفوياً " وهو تجنيس نفيس من غير تكلّف "[38]، فالمقام لا يحتمل التكلّف فحجم الحزن يدل عليه قوله: (فَهُوَ كَظِيمٌ) فقد كظم حزنه حتى أنه ناداه.

ووظِّف أسلوب الأمر في الحوار من حيث الكم بنسبة عالية، فقد صدر من الأبناء فعل الأمر (أَرْسِلْهُ) وحمل معنى الالتماس وليس الوجوب، فجاء الخطاب مُغلَّفاً بشيء من اللين والمحبة وطلب اللهو واللعب كما هو حال الأخوة مع بعضهم، لذلك خرج الأمر من وجوب الفعل إلى الالتماس من الأب لإرسال يوسف معهم لذلك خُتم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقد جاء الالتماس هنا مستأنفاً على الإنكار الذي سبقه في قولهم (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا)، أمّا فعل الأمر(فَأَرْسِلْ) ففيه من الالتماس ما يبرر صيغة الأمر وهو تلبية أمر العزيز مع تحقيق الاكتيال داعمين التماسهم بعهد جديد، وإن كان عهدهم بأخيهم يوسف ليس ببعيد لذلك عطفت جملة (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) على جملة الالتماس (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا) حتى نكتل حمل بعير بنيامين. أمّا فعل الأمر(ارْجِعُوا) فقد وُظِّف بالمعنى الحقيقي من الإتيان والالتزام، أمّا فعل الأمر (وَاسْأَلِ) لم يرد بالمعنى الحقيقي من وجوب الإتيان بالفعل، فالاستلزام الحواري خرج به إلى معنى التطمين والمؤانسة؛ وذلك دفعاً لتهم الكذب فأردفوا طلبهم بقولهم: (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)، وفعل الأمر(اسْتَغْفِرْ) فيه التماس واعتذار عمّا فعلوه، فكان الوعد من الأب أن يغفر لهم، ولكن هذا الوعد سينفذ على التراخي لقوله: (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي) وصدر من الأب فعل الأمر (ادْخُلُوا) [تمت معالجته مع النهي (لَا تَدْخُلُوا)] والأمر (اذْهَبُوا و(فَتَحَسَّسُوا) وقد جاء الأمر من يعقوب -عليه السلام- لبنيه بمعناه الحقيقي ولم يخرج إلى معانٍ أخرى، فقد أراد منهم الانصياع والامتثال لأمره سواء بالدخول أو الذهاب أو التحسس عن أمر يوسف وأخيه، فلا زال الأب النبي يمارس دور الإرشاد والتوجيه في إلقاء أمرين متتابعين على وجه السرعة (اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا) مرشداً إياهم لكيفية التتبع بالتحسس بما يحمله من غاية خير، وعطف على الأمر أسلوب النهي (وَلَا تَيْأَسُوا) وهو نهي فيه من شحذ الهمة ما يدفع المتلقي إلى الانصياع، وقد أردف هذا النهي بالتعليل وهو من لطائف الأسلوب القرآني بقوله: (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ). أمّا أسلوب النهي فقد صدر من الأب (لَا تَدْخُلُوا) وقد جاء بقصد الكف عن العمل، وجاء معطوفا على فعل الأمر (ادْخُلُوا) تأكيدا على النهي، وهما يحملان معنى الانصياع بالقيام بالفعل وعدم الفعل. و(وَلَا تَيْأَسُوا) [تمت معالجتها]، أمّا الاستفهام فقد ورد بثلاث أدوات: الأولى (ما) في قوله (مَا لَكَ) وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى التعجب "والاستفهام فيه معنى التعجب، والكلام ظاهر في أنّه تقدم منهم السؤال أن يخرج عليه السلام معهم فلم يرضَ أبوهم"[39]، فكان الإنكار من الأخوة لهذا الرفض الذي يؤكده ابن عاشور "وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان"[40]، وقد خُتمت الآية الكريمة بما يؤكد إنكارهم بقولهم: (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ). والثانية (هل) في قول يعقوب-عليه السلام-: (هَلْ آمَنُكُمْ) وقد خرج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى معنى مستلزم يتمثل بالإنكار والنفي، فالسائل لا ينتظر من المسؤول أن يجيب بنعم أو لا، لذلك تداخلت الدلالات في الاستفهام، فنجد أنه "يحمل قدراً من الاستغراب والاستنكار والنفي والتعجب من فكرة معاودة طلب الائتمان، كما أن هناك قدرا من الزجر والتوبيخ "[41]، وبالرغم من جملة الدلالات التي حملها استفهام يعقوب المُغلّف بحزنه وألمه

(37) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: **الكشاف**، 315/3.

(38) الألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 40/13.

(39) الألوسيّ، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 193/12.

(40) ابن عاشور، محمد الطَّاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 227/12

(41) الغرايبة، علاء الدين: **الجملة الطلبيَّة في سورة يوسف**، ص 398.

على يوسف، لم ينتظر جوابا ولكن أتبع الاستفهام بجملة (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ليدلَّ على عدم ثقته بهم جاعلاً ثقته بالله، بعد أن أعاد بنيه جملة العهد نفسها على يوسف(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) مع تقديم المصلحة العامة وهي جلب الطعام على حزنه. والثالثة (الهمزة) في قول يعقوب -عليه السلام-:(أَلَمْ أَقُلْ) وهو استفهام تقريري لا ينتظر منه تبياناً أو توضيحاً، فهو على علم مسبق بأمر يوسف، وقد جاء مغلفاً بالفخر والانتصار ليقينه بأمر يعلمه، لذلك جاء رد الأبناء يؤكد تقريرية الاستفهام بنداء يتبعه أمر (يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرلنا) مدعماً بنهي مُسبق من يعقوب _عليه السلام_ (وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ). ومع ذلك لا يخلوا الاستفهام _مع تقريريته _ من دلالة التوبيخ للأبناء، على الرغم من إظهار الأسف والتحسر على ما اقترفته أيديهم، وذلك بقولهم: (اسْتَغْفِرلنا) مؤكدين طلب العفو والمسامحة بقولهم: (إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ). أمّا أسلوب التمني فقد كان الأقل توظيفاً وقد ورد مرة واحدة باستخدام (عَسَى) على لسان يعقوب -عليه السلام -وقد أمتزج الرجاء بالدعاء مع حسن الظن بالله بقوله: (أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا).

ج- حوار يوسف مع أخوته

ورد حوار يوسف مع أخوته في قاله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90)﴾، وقوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)﴾.[42] وفي هذه الحوارات الأسرية التي جمعت بين الأخوة ويوسف _عليه السلام _ وُظِّفت الأساليب الإنشائية: الأمر، والنهي، والاستفهام، وغاب التمني عن حوار الأخوة، وحضر النهي مرّةً واحدةً، وكان موجهاً من يوسف لأخيه بقوله: (فَلَا تَبْتَئِسْ) بمعنى لا تحزن، وقد جاء هذا النهي من يوسف لأخيه ليبثَّ في نفسه الطمأنينة بعد أن عرّف بنفسه بقوله: (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ) وفيه أيضا تمهيدٌ لما سيقوم به يوسف _عليه السلام _. وأمّا الأمر وهو الأسلوب الأبرز في هذه الحوار. فقد خرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مختلفة، ففي قوله (ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ) خرج عن معنى الامتثال والإتيان إلى معنى ثاني مستلزم هو الترغيب والترهيب، فالترغيب يؤكّده الاستفهام التقريري في قوله:(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)، والترهيب دلَّ عليه التهديد في قوله: (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)، كذلك الأمر في قولهم: (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ) خرج إلى معنى الاستعطاف والاسترحام، فجاء فعل الأمر (فَأَوْفِ) وعُطِفَ عليه فعل أمر آخر (وَتَصَدَّقْ) فالمستلزمة الحوارية في هذه الآية الكريمة خرجت بهذين الفعلين إلى معنى التّذلّل وقد مهّد لذلك بداية الحوار بالنداء (يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ) فالعزيز في تقابلية ضمنية الذليل، وقد جاء النّداء مُؤكِّداً لغايات الاستعطاف فبادروا بقولهم:(إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا)، وقد مسّهم الضُّرُّ وجاؤوا ببضاعة مزجاة، وأتبع الاستعطاف والتذلل بأمر (فَخُذْ) يؤكد ما ذهبوا إليه من إظهار الاستعطاف والتّذلّل مع الحرص على الالتزام بالعهد الذي قُطِعَ للأب، مصحوباً بالالتماس المتسع الخيار (فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ)، وقد أعقب الالتماس حسن التعليل بقولهم: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ليتناسب السياق الحواري مع المدح والثناء الذي استهلّوا به خطابهم مع العزيز المُحسن، وقد ذهب الزمخشري إلى أنَّ الأخذ إنما جاء على سبيل

(42) سورة يوسف، الآيات (58،59)،(69)،(78)،(88-90)،(93).

"الاسترهان أو الاستعباد"[43]. وبعد هذا التّذلّل والانكسار لم يكن ليوسف _عليه السلام _المضي أكثر في إخفاء نفسه عن أخوته فباغتهم باستفهام (هَلْ عَلِمْتُمْ) ليخرجَ إلى معنى تهويل وتعظيم قبح ما فعلوه، وكذلك فيه من التوبيخ على ما اقترفوه، "الاستفهام للتوبيخ والتقريع"[44] وفي الوقت ذاته لم يحمل هذا التوبيخ أيَّ ملامح من الشّماتة أو الاستهانة، بل بادر في عذرهم، بقوله: (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)، وفي هذا يقول الألوسي: " الظّاهر أنَّ ذلك لم يكن تشفّياً بل حثٌّ على الإقلاع والنصح لهم؛ لما رأى من عجزهم وتمسكهم ما رأى مع خفي معاتبة على وجود الجهل"[45]، فيقابل الأخوة الاستفهام بالاستفهام (أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)، فهذا استفهام تقريري مؤكّد بدخول (إنّ واللام)؛"لأن التأكيد يقتضي التحقّق المنافي للاستفهام الحقيقي"[46]، لذلك لم يُنتظر منه إيضاحٌ أو إفصاحٌ دلَّ عليه قول يوسف عليه السّلام: (أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي) فقد علم الأخوة أنّ العزيز هو يوسف من استفهام يوسف عليه السلام: (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)، ولو كان غير ذلك فقد يكون جواب يوسف نعم أنا يوسف، ثم يعقب ذلك بثلاثة أفعال أمر متتالية (اذْهَبُوا)، (فَأَلْقُوهُ)، (وَأْتُونِي)، وقد جاءت هذه الأوامر لبيان النتيجة والغاية، فالغاية من الذهاب هو الإلقاء على وجه السّرعة وترقب نتيجة الإلقاء وهي رد البصر والإتيان، والغاية من الإتيان التكريم، ومن لطائف الخطاب القرآني أن جعل إتيان الأب طوعاً (يَأْتِ)، وإتيان الأهل والأخوة أمراً(وأْتُونِي) وقد عطف الإتيان الطوعي على الإتيان الجبري.

د- حوار أخوة يوسف مع بعضهم

قال تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80)﴾،[47] في هذا الحوار الذي دار بين الأخوة المترصدين بأخيهم سيطر الحسد من محبَّة الأب لابنه حتى سّولت لهم أنفسُهم قتلَ أخيهم، فجاء الأمر بالقتل (اقْتُلُوا) ثمَّ عطف عليه أمرٌ آخر على وجه التخيير وهو الإقصاء إلى أرض بعيدة (اطْرَحُوهُ)، وفي كلا الفعلين خرج الأمر إلى ما يستلزمه الحوار فمن وجوب الإلزام إلى الإرشاد بالمعصية " أرادوا ارتكاب شيء يفرّق بين يوسف وأبيه -عليهما السّلام – فاستعمل الأمر في الإرشاد"(48)؛ ولأنَّ أمر طلب القيام بالمعصية تظهر فيه ريح التشكيك والتثبيط في حوارهم، أعقبوا الأمر بنهي (لَا تَقْتُلُوا) ولكن التشكيك لا يذهب بهم إلى الامتناع عن الفعل، فهم عازمون عليه، لذلك أعقب النهي أمرٌ آخر (أَلْقُوهُ) في غيابة الجب، والهدف من ذلك (يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ).

وينتقل بهم الحوار حتى كأنهم تائهون في غيابة اليأس، وقد تبدّل بهم الحال من قوة الأمر إلى متاهة الإنكار واليأس، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ

---

(43) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: **الكشاف**، 311/3

(44) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 13/ 47، والقنوجي، صديق بن حسن، (1992): **فتح البيان في مقاصد القرآن**، (د. ط)، المكتبة العصرية، بيروت، 393/6.

(45) الألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 47/13.

(46)الألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 48/13.

(47) سورة يوسف، الآية (9،10)، (80).

(48) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 223/12.

اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)، وهو استفهام تقريري " مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه "[49].

المحور الثاني: الاستلزام الحواري في الخطاب الأسري بين الرجل والمرأة.

نتناول في هذا المحور الحواري الأسري بين ركني الأسرة الرئيسين (الرجل، والمرأة) ونسلط الضوء على الحوار المتضمن العلاقة بين الرجل والمرأة وما يستلزم هذا الحوار من معانٍ ودلالات، حيث راعى النص القرآني طبيعة المرأة، وموقعها في النسيج الاجتماعي، ولهذا جاء الحديث عن علاقتها الشرعية بالرجل بأساليب بلاغية خرجت عن دلالاتها اللفظية الحقيقية إلى معانٍ بلاغية تُفهم من السياق الذي وردت فيه.

وقد زخر النص القرآني بهذه الخطابات، فالخطاب الأسري بين الرجل والمرأة من الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم بشكل مفصل في أكثر من موضع، ولأهمية الأسرة ومكانتها في المجتمع الإنساني فقد أفردت لها سورتان: النساء والطلاق. ولم يُحصر الخطاب الأسري في هاتين السورتين، فقد جاءت الآيات في عدة مواضع، سيسلط الضوء على المستلزمة الحوارية الكنائية والاستعارية فيها. فقد تناولت آيات الزواج وما يتعلق به.

خطابات الزّواج وما يتعلّق به

خطاب الزّواج من الخطابات التي تناولها النص القرآني بحرص شديد ولغة تلميحية؛ لذا وظّف ما يناسبها من الأساليب البلاغية كالكناية والاستعارة، وقد وردت العلاقة الزوجية في تسعة مواضع في القرآن الكريم، ووظِّفت لها الألفاظ المناسبة حفاظاً لخصوصية العلاقة الزوجية وصوناً للحياء لئلا يُخدش، يقول الله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾[50]، في هذه الآية الكريمة نجد أن الألفاظ خرجت عن معانيها الأصلية إلى معان مستلزمة تظهر من السياق، فقد كني بلفظة (الرَّفَث) عن الجماع، فالرّفث "كلامٌ مُتضمِّن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، وجُعِلَ كنايةً عن الجماع تنبيهاً على جواز دعائهن إلى ذلك ومكالمتهن فيه، وعُدِّي بـ (إلى) لتضمنّه معنى الإفضاء"[51]، وأصل الرّفث قول الفحش، رفث، أرفث إذا تكلّم بالقبيح، وترّفث أفحش وأفصح بما يكنى عنه، والمراد الجماع، لأنّه لا يخلو من الإفصاح[52]. أمّا الزّجاج فقد جمع كل معاني الرّفث في قوله: " الرّفثُ كلمةٌ جامعةٌ لكلّ ما يريد الرجل من المرأة"[53].

وفي قوله تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ استعارة اللباس للتعبير عن الجماع، وهو من الملابسة أي الاختلاط، فقد شبّه الرجل والمرأة باللباس لاشتمالهم على بعض كما يشتمل اللباس الأجساد " والمراد قرب بعضهم من بعض، واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام،"[54] فيكونا سترا لبعضهم بعضا، ولفظة اللباس تستخدم " لكل ما يُغطّي من الإنسان عن قبيح، فجُعِلَ الزوجُ لزوجه لباساً من حيث إنّه يمنعها ويصدها عن

(49) المصدر نفسه، 49/13.

(50) سورة البقرة، الآية 187.

(51) الأصفهاني، الحسين بن محمد، (د.ت): **المفردات في غريب القرآن**، (د. ط)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 199.

(52) انظر الألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 94/2، والقنوجي، صديق بن حسن: **فتح البيان في مقاصد القرآن**، 374/1.

(53) الزّجاج، إبراهيم، (1988)، **معاني القرآن وإعرابه**، ط1، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، 255/1.

(54) الرضي، الشريف، (1955)، **تلخيص البيان في مجازات القرآن**، (د. ط) المكتبة العلمية: بغداد، مطبعة المعارف: بغداد، ص 12.

تعاطي القبيح" [55]، وكذلك هي لباسٌ له، وقد أورد الطبري عدة أوجه لتفسير لفظة (لِبَاس) فقد جُعِلَ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه لباساً لتجردّهما واجتماعهما في ثوبٍ واحد، فيكون كلٌّ منهما لصاحبه بمنزلة اللباس والسّتر؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما سترٌ لصاحبه عن أبصار الناس[56]. أما في قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ فقد خرج الحوار ومقتضى الحال بلفظة (باشر) عن معناها الحقيقي وكني بها عن الجماع " المباشرة الإفضاء بالبشرتين وكني عنها بالجماع"([57])، وذهب عبد القاهر الجرجاني إلى القول بأن المباشرة هي " إمساس البشرةِ البشرةَ والمراد بها الرفث "[58]، وكذلك سُمِّيت مباشرة " لتلاصق بشرة كلِّ واحدٍ بصاحبه "[59].

ولم يقف الخطاب القرآنيّ عند معنى الإتيان فحسب، بل تعرّض إلى النّقيض وهو الاعتزال، وقد وُظِّفت الأساليب البلاغة بلغة ترفعت عن الخدش وحافظت على الحياء، ففي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[60]، فقد زخرت هذه الآية الكريمة بثلاث كنايات (فَاعْتَزِلُوا، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ، فَأْتُوهُنَّ)، وقد أُستخدم أسلوبا الأمر والنهي وكلاهما كناية عن الجماع، ومن جمالية الحوار القرآني أنه بين حكم التعامل مع النساء الحيّض، فقد قُدِّمت العلَّة على الحكم، فجاءت الأحكام مشروعة، فالاعتزال " تجنّب الشيء بالبدن أو بالقلب"[61] وقد جاء هنا أمر اعتزال النساء وتجنبهن في زمن الحيض إن حُمِلَ على المصدر، أو محل الحيض إن حُمِلَ على الاسم، لما فيه من أذى في كليهما، وكُني عن عدم إتيان النساء وجماعهن بلفظ الاعتزال، ثم اتبع أمر الاعتزال بنهي عن الاقتراب وهو كناية عن عدم الجماع أيضاً، فعطف عدم الاقتراب على الاعتزال لبيان حدِّ الاعتزال وهو وقت المحيض، فإذا انقضى وقت الحيض وتطهّرن (فَأْتُوهُنَّ)، والإتيان هنا "المجيء بسهولة "[62]، وهو كناية عن الجماع، والسهولة هنا تأتي من اكتمال شرط الإتيان وهو انقضاء الحيض والتطهّر. وقد جاء الأمر هنا على محمل الإباحة بعد تحقّق شرط التطهّر الذي سبقه نهي.

ولم يقف الخطاب القرآني عند حد الأوامر والنواهي بل فصّل في علاقة الرجل بالمرأة أحيانا، فجاءت الآية التالية في التفصيل في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[63] والحرث هو " إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع، فبالنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان، كما أن الأرض زرع ما به بقاء الأشخاص"[64]، فقد شبه النُطف بالبذور فهو تشبيه يكنى عن معنى آخر، وهي من الكنايات القرآنية البديعة، ويرى الألوسي في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ) أنّها تأتي على محملين، فالإتيان كالحرث قد يأتي بالمعنى الحقيقي، وقد يخرج بمعنى مستلزم من الحوار، فالخطاب " فيه استعارة تصريحية، ويحتمل أن يبقى الحرث على حقيقته، وفيه تمثيل حال إتيانهم النساء

---

(2) انظر، الطبري، (1994): **تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير آي القرآن)**، ط1، تحقيق: بشار معروف وعصام الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت،502/1.

56) الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، 447.

57) المصدر السابق،48.

58) الجرجاني، عبد القاهر، (2009): دُرج الدُّرر في تفسير القرآن الكريم، (ط1)، تحقيق: طلعت فرحات، شكور، دار الفكر، عمان،290/1

59) القنوجي، صديق بن حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، 375/1.

(60) سورة البقرة، الآية 222.

(61) الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، ص 334.

(62) المصدر السابق، ص9.

(63) سورة البقرة، الآية 223.

(64) الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، ص 112.

من المأتي بحال إتيانهم المحارث والأول أظهر وأوفق "[65]، ويؤيد الزمخشري هذا الرأي، إذ يرى أنها تمثيل، بمعنى " فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها"[66]، والإتيان كناية عن الجماع.

ومن الكنايات التي وظّفها الخطاب القرآني في العلاقة بين الرجل والمرأة الإفضاء في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[67] والفضُّ "كسر الشيء والتفريق بين بعضه وبعضه"[68]، وفي لغة خزاعة الفضُّ الجماع [69]، وهنا خرج الحوار بمعنى مستلزم من (أَفْضَى) هو الجماع، غير أنه أُختلف فيه من حيث وقوعه، أو عدم وقوعه، فالزّجاج يرى أنّ "الإفضاء أصله الغشيان، فإذا خلا فقد أفضى، غشي أو لم يغش"[70]، ويوافقه الرأي عبد القاهر الجرجاني بأن " الإفضاء هو الوصول إليها في الخلوة سواء وُجِدَ الجماع أو لم يوجد "[71]، أما صاحب روح المعاني فيذهب إلى أن الإفضاء كناية عن الجماع، ولم يُقصد به الخلوة؛ لأّن العرب لا تستحي من ذكر الخلوة، فيما تستحي من ذكر الجماع [72].

وكذلك يرى الطبري والسيوطي أنّ الإفضاء هو الجماع[73]، أمّا سيد قطب في ظلاله فيرى أن الإفضاء أُطلق دون تحديد أو تعريف وقد تجاوز الماديات الجسدية إلى المعاني الروحية مُعبّراً عن تلك العواطف التي تخالج قطبي الأسرة في كلِّ سكناتها، وحركاتها، وتعايشها، فكلُّ اختلاجة حبٍّ إفضاء، وكل نظرةِ ودٍّ إفضاء، وكل مشاركة في ألم أو أمل إفضاء، وكل تفكير في حاضر أو مستقبل تلك المؤسسة الأسرية إفضاء[74].

ويمضي الخطاب القرآني في تنظيم العلاقة الأسرية بكلِّ حيثياتها وأدقِّ تفاصيلها دون أن يخدش الحياء أو يمسّ، يقول عز وجل: ﴿نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[75]، والدخول هو الولوج إلى الشيء، وهو كناية عن الجماع [76]، فالحوار استلزم توظيف (الدخول) بمعنى الجماع، غير أنّه أُختلف في حدِّ الدخول المانع للزواج من الربائب، فقد ذهب صاحبا الكشاف وروح المعاني إلى القول بأن " الدخول بمعنى المصاحبة، والدخول معهنّ الستر وضرب عليها الحجاب، وهو كناية عن الجماع"[77]، سواء واقعها أم لا، ودليل ذلك قول رسول الله - ﷺ-: (الذي يتزوّج المرأة فيغمز لا يزيد على ذلك لا يتزوج ابنتها). وهذا ما ذهب إليه جمهور العلماء " أن جميع أنواع التلذّذ بالأم يُحرّم الابنة كما يحرّمها الجماع"[78]، وذهب ابن عباس الى القول بأنّ التحريم لا يقع إلا

---

(65) الألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 125/2.

(66) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: **الكشاف**، 434/1.

(67) سورة النساء، الآية 21.

(68) الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، ص 380.

(69) عمرو، إسماعيل، (1946): **اللغات في القرآن**، (د. ط)، تحقيق: صلاح المنجد، مكتبة الرسالة، القاهرة، ص24.

(70) الزّجاج، إبراهيم: **معاني القرآن وإعرابه**، ص31.

(71) الجرجاني، عبد القاهر: دُرج الدُّرر، 476/1.

(72) الألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 244/4.

(73) الطبري، **تفسير الطبري**: 2/ 22، والسيوطي، عبد الرحمن، جلال: **الدر المنثور في التفسير المأثور**، 467/2.

(74) انظر، قطب، سيد: (2003)، **في ظلال القرآن**، (ط32)، دار الشروق، مصر،606/1.

(75) سورة النساء، الآية 23.

(76) يوسف، محمد الشهير بأبي حيان الأندلسي، (1993): **تفسير البحر المحيط**، ط1، تحقيق: عادل عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، 220/3.

(77) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: **الكشاف**، 54/2، والألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 4/ 258.

(78) الثعالبي، عبد الرحمن، (1997): **تفسير الثعالبي المسمى " الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، (ط1)، تحقيق: علي معوض وآخرون، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 201/2.

بالجماع وحده[79]، وهذا ما يؤيّده صاحب البحر المحيط بقوله: " الدخول كناية عن الجماع، لقول ابن عباس وطاووس وابن دينار: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب، والباء في (بهنّ) للتعدية، والمعنى اللاتي ادخلتموهنّ الستر، فلو طلّقها بعد البناء وقبل الجماع جاز أن يتزوّج ابنتها "[80].

ومن الكنايات التي وُظِّفت في الخطاب القرآني الأسري، التي خرجت إلى معنى الجماع المستلزم من السياق (الاستمتاع)، في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[81]، وهي من الكنايات التي اختلف جمهور المفسرين حولها، وهذا ليس مقامها، فقد اقتضى التنويه إلى المعنى المستلزم منها دون الخوض في تفصيلاتها. وأيضاً من الكنايات التي أُختلف في حدودها في الخطاب الأسري (اللمس) في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[82]، واللمس "إدراك بظاهر البشرة "[83]، وإن كان قد أُختلف في حدودها فقد أُتفق على استلزام كنايتها، فاللمس كناية عن الجماع، لأنَّه لمسٌ مطلقٌ، وهو يستوجب الغسل[84]. وعند الطبري " الجماع دون غيره من معاني اللمس"[85]، والثعالبي في جواهره يؤكد هذه الآراء" اللمس في اللغة لفظٌ يقع للمس الذي هو الجماع"[86]. أما الذين قالوا أن اللمس هو الذي دون الجماع فهم كثر منهم: ابن مسعود اللمس دون الجماع، والقبلة منه وفيها الوضوء وابن عمر يسانده الرأي فهي عنده اللماس والجس والغمز منه[87]. وقد ورد اللمس في الآية السادسة من سورة المائدة وقد وردت بالطريقة نفسها.

ولم يقف الخطاب القرآني عند هذا الحدِّ من الكنايات التي عبّرت عن العلاقة الزوجية، بل توسّع في الكنايات والاستعارات، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ (88) ، وفي هذه الآية الكريمة يصور العلاقة الزوجية في أبهى صورها، فالرجل والمرأة خُلِقا من نفس واحدة، وجُعِلا سكناً لبعضهما، فالنفس لا تهدأ إلا إلى نفسها، فقد عبّر الخطاب القرآني عن جو الهدوء والسكينة والطمأنينة الذي يسود علاقة الرجل والمرأة لينتقل إلى التعبير عن العلاقة الخاصة بينهما بمستلزمة حوارية اختصرت الحياة الزوجية في أرقى صورها، فقد عبّر الطّبري عن السكن بأنه للرجل عملية "الإيواء لقضاء حاجته ولذته، وتغشاها أي تدثرها لقضاء حاجته منها "[89].

وذهب جلُّ المفسرين إلى كنائية التّغشّي وهو الجماع[90]، أمّا الزمخشري فقد فصّل القول عن السّكن " ليطمئن إليها ويميل ولا تنفر؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ

---

(79) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: **الكشاف**، 54/2.

(80) يوسف، محمد: **تفسير البحر المحيط**، 220/3.

(81) سورة النساء، الآية 24.

(82) سورة النساء، الآية 43.

(83) الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، ص 454.

(84) الجرجاني، عبد القاهر: **دُرج الدُّرر**، 1/ 491، وقطب، سيد: **في ظلال القرآن**، 668/5.

(85) الطبري: **تفسير الطبري**، 467/2.

(86) الثعالبي، عبد الرحمن: **تفسير الثعالبي المسمى "الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، 241/2.

(87) عبد الرحمن، جلال: **الدر المنثور في التفسير المأثور**، 549/2

(88) سورة الأعراف، الآية 189.

(89) الطبري، **تفسير الطبري**،534/3.

(4) الزّجاج، إبراهيم: **معاني القرآن وإعرابه**، 393/2. والثعالبي، عبد الرحمن: **تفسير الثعالبي المسمى " الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، 103/3. ويوسف، محمد: **تفسير البحر المحيط**، 437/4. والألوسي، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 138/9. والثعلبي، أحمد (2015)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، (ط1)، دار التفسير: السعودية، 620/12.

ليغشاها وهو كناية عن الجماع[91]، ولا تزال الكنايات القرآنية تتوالى في الخطابات الأسرية، ففي سورة الأحزاب هناك مستلزمة حوارية أخرى بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[92]، والوطر: النهمة والحاجة المُهمة [93] وهناك شبه إجماع على كنائية الوطر وهو الجماع، وذهب بعضهم إلى أنّه كنايةٌ عن الطلاق، وعند الزمخشري " لم يبقَ لزيد فيها حاجة، وتقاصرت همّته عنها، وطابت عنها نفسه وطلقها"[94]، أمّا ابن عاشور فهو يرى أنّ قضاء الوطر بمعنى " لما استتمّ زيدٌ مدّة معاشرته زوجه ثمَّ طلّقها"[95]، أمّا صاحب البحر المحيط فقد أفصح عن كنائية الوطر بأنّه الجماع مُفصّلاً فيه بأنه " بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، والمراد أنّه قضى وطره بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبقَ له فيها حاجة"[96]، والقرطبي له قول في ذلك، فهو كل حاجة للمرء له فيها همّة مستنداً إلى قول ابن عباس: أي بلغ ما أراد من حاجته يعني الجماع [97]، وقد جمع صاحب روح المعاني هذه الآراء بإيجاز بقوله: " الوطر الحاجة وقد قيدت بالمهمة، وقال المبرد هو الشهوة والمحبة، والمراد لم يبق له بها حاجة الجماع وطلقها وقيل هو كناية عن الطلاق"[98]، وقد اختصر ابن عباس -رضي الله عنهما- المعاني المستلزمة من الآيات السابقة في قوله: " الدّخول، والتّغشي، والإفضاء، والمباشرة، والرفث، واللمس، والمس هذا الجماع، غير أنّ الله حييٌ كريمٌ يكني بما يشاء عمّا يشاء"[99]

الخاتمة.

تضمن هذا البحث دراسة تداولية في آيات الخطاب الأسري في النص القرآني، وقد سلط الضوء على الاستلزام الحواري في الحوار بين أفراد الأسرة باختلاف الروابط التي تجمع بينهم، التي تفضي إلى اختلاف في طبيعة وسياقية الحوار. وقد خلص البحث إلى عدة نتائج أهمها:

1- إن ظاهرة الاستلزام الحواري برزت بوضوح في الخطاب الأسري في النص القرآني. وقد ظهرت بشكل جلي في الأساليب الانشائية الطلبية والكناية والاستعارة.
2- الأساليب الإنشائية وظفت في الحوارات الأسرية النبوية، باختلاف كم التوظيف بين الأساليب، فتصدرت أساليب الأمر والنداء والاستفهام الحوارات، وجاء النهي بتوظيف أقل، أما أسلوب التمني قلما وظف في الحوارات.
3- أن جل الأساليب خرجت من معناها الحقيقي إلى المستلزمة الحوارية، مغلفة بدلالات السياق التي وظفت فيه.

---

(5) الزمخشري: **الكشاف**، 540/2.

(1) سورة الأحزاب، الآية 37.

(2) الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، ص 526.

(94) الزمخشري: **الكشاف**، 74/5، وانظر ابن هائم، شهاب الدين، (2003): التبيان في تفسير غريب القرآن، ط1 تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ص266، الدُّرَّة، محمد علي(2009):تفسير القرآن الكريم واعرابه وبيانه، (ط1)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 490/7.

(95) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 39/22.

(96) يوسف، محمد: **تفسير البحر المحيط**، 227/7.

(97) انظر، القرطبي، محمد (2006): **الجامع لأحكام القرآن**، ط1، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 163/17.

(98) **الألوسي**، شهاب الدين محمود: **روح المعاني**، 25/22.

(99) الثوري، سفيان، (1983): **تفسير سفيان الثوري**، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 64. والقنوجي، صديق بن حسن: **فتح البيان في مقاصد القرآن**، 374/1.

4- أن الخطاب الإبراهيمي اقتصر على أمر الطاعة والانصياع، لذلك لم يحتمل الحوار الإسهاب والاستطراد، لذا حصرت الأساليب بين النداء والأمر.

5- أن الحوارات اليوسفية امتدت وتنوعت باختلاف العلاقات والروابط بين أطراف الحوار. لذلك تنوعت الأساليب التي وظفت في الحواريات اليوسفية. أما حوار نوح فقد جاء مقتضبا خاطفا ومعبرا عن العصيان من خلال نداء واحد وأمر واحد.

6- أن الحوارات الأسرية قد تضمنت في محتواها التداولية وإن لم تظهر بشكل واضح كما في الحوارات النبوية.

7- من خلال الحوارية الاسرية بين الرجل والمرأة، حرص الخطاب القرآني على حماية العلاقة بين الرجل والمرأة بمستلزمة حوارية موظفا الكناية في جل الخطابات مستعينا بالاستعارة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، (1984): **تفسير التحرير والتنوير**، (د. ط)، الدار التونسية للنشر، تونس.
- ابن هائم، شهاب الدين، (2003): **البيان في تفسير غريب القرآن**، (ط1)، تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الأصفهانيّ، الحسين بن محمد، (د.ت)، **المفردات في غريب القرآن**، (د. ط)، تح: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- الألوسي، شهاب الدين محمود، (د.ت): **روح المعاني**، (د. ط)، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- إيكو، أمبرتو، (2005): **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة: أحمد الصمعي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
- الثّعالبي، عبد الرحمن، (1997): **تفسير الثعالبي المسمى " الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، (ط1)، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- الثّعلبي، أحمد (2015): **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، (ط1)، دار التفسير، السعودية.
- الثّوري، سفيان، (1983): **تفسير سفيان الثوري**، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجرجاني، عبد القاهر، (2009): **دُرج الدُّرر في تفسير القرآن الكريم**، (ط1)، تحقيق: طلعت فرحات، ومحمد شكور، دار الفكر، عمان.
- الحميدي، عبده عبد الله، (2007): **الحوار في القرآن الكريم**، (د. ط)، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب، اليمن.
- الخليلي، محمد غسان، (2017): **جماليات الخطاب الأسري في القرآن الكريم**، (د. ط)، دار الفلاح، عمان.
- الدُّرَّة، محمد علي (2009): **تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه**، (ط1)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- الرّضي، الشريف، (1955): **تلخيص البيان في مجازات القرآن**، (د. ط)، المكتبة العلمية، مطبعة المعارف، بغداد.
- الزّجاج، إبراهيم، (1988): **معاني القرآن وإعرابه**، ط1، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت.
- زكريا، عبد المرضى، (1997): **الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني**، (د. ط)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، (1998): **الكشاف**، ط1، تح: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، العبيكان.
- السيوطي، عبد الرحمن جلال، (2011): **الدر المنثور في التفسير المأثور**، (د. ط)، دار الفكر، بيروت.
- صحراوي، مسعود، (2005): **التداولية عند العلماء العرب**، ط.1، دار الطليعة، بيروت.
- الطّبري، (1994)، **تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير آي القرآن)**، ط1، تحقيق: بشار معروف، وعصام الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- عبد الرحمن، طه، (2000): **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- عمرو، إسماعيل، (1946): **اللغات في القرآن**، (د. ط)، تحقي: صلاح المنجد، مكتبة الرسالة، القاهرة.
- الغرايبة، علاء الدين، (2014): **الجملة الطلبية في سورة يوسف دراسة تركيبية دلالية**، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مج41، ع1.
- القرطبي، محمد (2006): **الجامع لأحكام القرآن**، ط1، تح: عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- قطب، سيد (2003): **في ظلال القرآن**، (ط32)، دار الشروق، مصر.
- القنوجي، صديق بن حسن، (1992): **فتح البيان في مقاصد القرآن**، (د. ط)، المكتبة العصرية، بيروت.
- مصطفى، محمود السيد، (1981): **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، (ط.1)، مؤسسة شباب الجامعة، مصر.
- نحلة، محمد أحمد، (2002): **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، (د. ط)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
- يوسف، محمد الشهير بأبي حيان الأندلسي، (1993): **تفسير البحر المحيط**، ط1، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، زكريا النوبي، أحمد الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت.